

عالم الكتابة القصصية للطفل

عبد الباقي يوسف

سلسلة كتاب: العربية
وزارة الثقافة والإعلام في المملكة العربية السعودية
الرياض ٢٠١٠



الفهرس

مقدمة

- ١ - شخصية الطفل
- ٢ - شخصية كاتب الطفل
- ٣ - تنمية موهبة كتابة قصة الأطفال
- ٤ - تصنيف قصص الأطفال
- ٥ - المرأة والكتابة للطفل
- ٦ - توظيف الخيال في كتابة قصة الأطفال

مقدمة

الحديث الطبيعي بين الكبير والصغير هو حديث عقيم لافائدة منه لدى شريحة جيدة من الناس ، ولذلك نرى الكثيرين يتحاشون الحديث الجاد أو الهادف مع أطفالهم ، لأنهم يظنون بأنه لايزيد على أن يكون حديث الطرشان ، وحقيقة الأمر ، فبقدر ما يحتاج الصغير إلى حديث الكبار ، فإن الكبار أيضاً يحتاجون إلى أن يحدثوا الصغار ، ويحتاجون إلى الإصغاء إليهم أيضاً .

وعملية الكتابة للأطفال تحمل الكثير من الحساسية بالنسبة لكاتب الأطفال ، كما أنها تتمتع بكثير من الميزات التي لا بد أن يتمتع بها هذا الشخص الذي شاء أن يوظف قلمه لعالم الطفل .
الكتابة الموجهة للطفل تحتاج إلى خصائص ومقومات لا بد أن يتمتع بها كاتب قصة الأطفال حتى تكون له معيناً لربط جسر ذوقي وحسي وأدبي بينه وبين الطفل ، إلى جانب ما يتمتع به من موهبة توظيف المخيلة ، وموهبة الإبداع الأدبي والفكري .

لأقول أن الكتابة للأطفال عملية صعبة بشكل خاص كما قد يظن البعض ، بل أن الإبداع الأدبي بشتى فروع وأجناسه عملية تحتاج إلى جهود كبيرة حتى يتم إخراجه من المخيلة إلى عمل مقروء ، ثم تحتاج إلى كثير من الجهد حتى يرى هذا الإبداع النور ، وهذا يتعلق أيضاً بشخصية الكاتب ، فقد نرى كاتباً يتمتع بموهبة أصيلة ، ويتمتع بذكاء في التواصل عبر توصيل نتاجه الأدبي إلى الآخرين ، بيد أن شخصيته لا تترك مجالاً حتى يحترمه الآخرون ، وحتى يحترموا أدبه ، فهو شخص لا يتمتع بحكمة التوازن ، أو بحكمة بناء شخصية ثقافية واجتماعية راقية يكن لها الآخرون الكثير من التقدير والاحترام ، من ناحية أخرى ، فهو قد لا يقدر نتاجه الأدبي ، ويقذفه إلى الناس ، وقد يبلغ مرحلة يتوسل فيها من أجل نشر كتاب له ، أو حتى نشر موضوع في مجلة شديدة البساطة .

إنه هنا يهين شخصيته أولاً ، ثم أنه يهين موهبته الإبداعية ، وبالتالي فإن الناس يشعروا بشيء من الضجر منه كشخص ، ومن نتاجه كإبداع .

في حين نرى المبدع الذي يتمتع بشخصية متوازنة ينتظر طويلاً حتى يقدم إبداعه ، أو حتى يقدم أمسية أدبية ، أو محاضرة ، وهو يشعر برهبة التواصل مع الآخرين ، وعموماً فإن مثل هذا الشخص هو شديد الحياء ، وشديد الحساسية تجاه علاقاته بالآخرين ، وهو شخص يصمت أكثر مما يتكلم ، ويختفي أكثر مما يظهر ، ودوماً يتلقى الدعوات ، بيد أنه يتأنى في تلبيتها ، حتى يثق كل الثقة بما انتهى إليه من إبداع جديد .

شخصية الطفل

كلمة الطفولة ، تعني مرحلة زمنية بالنسبة لعمر الإنسان ، وهذه المرحلة تختلف من منطقة إلى أخرى ، ولكن في جميع الأحوال يمكننا اعتبار أن الطفولة تبدأ من الولادة ، وتمتد إلى بدء مرحلة المراهقة ، وعند ذلك ، يتجاوز الإنسان مرحلة الطفولة ليدخل إلى مرحلة المراهقة ، ولكن ثمة سنوات يستقبل فيها الطفل المؤثرات الخارجية أكثر من غيرها ، ويتفاعل في تلك السنوات مع الخارج أكثر من غيرها ، وهي سنوات تأسيسية بالنسبة لعمر الطفل ، وهي السنوات التي تمتد من الثالثة ، وحتى السادسة ، بحيث يستطيع المربي أن يوجه الطفل إلى أي سلوك يشاء ، إنه يشبه العجينة بيد الخباز ، يصنع بها رغيفاً في الإطار الذي يريد . والإنسان مهما تقدم في العمر ، فإنه يبقى حاملاً للمؤثرات التي اكتسبها في السنوات الثلاث تلك .

اهتم الإنسان بتوجيه الطفل منذ القدم ، ونجد في التراث الإنساني أشكال التربية والتوجيه للطفل ، في التراث اليوناني وجه الشعراء والأدباء بعض نتاجهم إلى الطفل ، ومنهم على سبيل المثال :
موسخوس ، ويوريبديدس ، وبيون ، وثيوكريتوس .
لقد خاطب بيون الطفل قائلاً :

يابني لاتلجأ إلى الناس دون مبرر
ولاتعتمد على الغير في إنجاز عملك
حاول أن تصنع مزمارك بنفسك
كل شيء يتم بمشيئة الآلهة

أراد بيون أن يعتمد الطفل على نفسه ، وهو يشق طريقه في الحياة ،
وبذات الوقت جعله يشعر بأن الله يكون في عون من كان في عون
نفسه ، إنه يدفع الطفل كي يشعر بالمسؤولية تجاه الحياة ، ويعتمد على
نفسه .

ونرى في التراث المصري القديم أشكال العناية بتوجيه الطفل ، ومن
ذلك قصيدة نشيد النيل التي نقول للطفل :

حمداً للنيل ينزل من السماء
ويسقي البراري البعيدة عن الماء
وينتج الشعير ، وينبت الحنطة
وهو سيد الأسماك
وهو الذي يحدد للمعابد أعيادها

كما اهتمت الإمبراطورية الفارسية بأدب الطفل ، وتركت تراثاً جيداً ،
ومن ذلك ما ورد في كتاب / أصل الخليقة / حيث يجيب الطفل الذي
يسأل عن الزمان قائلاً :

الزمان من كلا المخلوقين أقوى
الزمان من كل متملك أملك
الزمان من كل ذي علم أعلم

زماننا يمضي ويتفرق
لا يمكن للروح أن تتخلى عن الجسد
ولا حين تطير في الأعالي .
كما خاطبت حضارة وادي الرافدين الطفل في ملحمة جلجامش وهي
تقول له :

من سلك سبيل العدوان واغتصبت يده ما ليس له
من نظر نظرة رضا إلى مواطن الشر
من بدّل الوزن الكبير بالوزن الصغير
من أكل ما ليس له ولم يقل ما حدث
فسوف يعاقب على جرائمه .

ونجد في التراث الشعري العربي أشكال الكتابة للطفل ، حتى أن كبار
الشعراء خصوا بعض قصائدهم للطفل ، وقد لفتت لعبة / الزحلوقة /
التي يلعب بها الأطفال نظر امرئ القيس ، فكتب يقول :

لمن زحلوقة زل
بها العينان تنهل
ينادي الآخر الأل
ألا حلواً .. حلواً

وفي معلقته يقول عمرو بن كلثوم رافعاً معنويات الأطفال في
مجتمعه :

ألا بلغ بني الطماح عنا
ودعميا كيف وجدتمونا

إذا ما الملك سام الناس خسفاً
أبيناً أن نقر الذل فينا
ملأنا البرحتى ضاق عنا
وماء البحر نلمؤه سفينا
إذا بلغ الفطام منا صبي
تخر له الجبابر ساجدينا

يقول الإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين : اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأكدها ، والصبي أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة ، وهو قالب لكل ما يملأ به ، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة ، وشاركه في ثوابه أبوه وكل معلم له ومؤدبوه ، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك ، وكان الوزر في رقبة القيم عليه والولي له .

وقد وردت تعريفات عديدة في التراث الإسلامي عن الطفل ومنها وصف النبي صلى الله عليه وسلم : / الطفل ريحانة من الجنة / أما معاوية فيصف ابنته بـ / تفاحة القلب / ، فقد دخل عمرو بن العاص عليه وعنده ابنته عائشة فقال : من هذه يا أمير المؤمنين ؟ قال : هذه تفاحة القلب ، ثم أضاف : فوالله ما مرض المرضى ، ولا ندب الموتى ، ولا أعان على الأخوان إلا هن . فقال عمرو : يا أمير المؤمنين إنك حبيبتهن إلي . وكان الزهير بن العوام يرقص ولده ويقول :

أزهر من آل بني عتيق
مبارك من ولد الصديق
ألذه كما أذريقي

وقد تنبه الأدباء في التراث العربي إلى خصوصية العلاقة بين المرسل والمتلقي في الأدب ، وفي ذلك يقول ابن قتيبة وهو يشرح منهج تقديمها لأدب إلى المتلقي : / ولم أسلك فيما ذكرته فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختار له سبيل من قلد أو استحسنت باستحسان غيره ، ولانظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره / . *

أما الجاحظ يرى بأن الإفصاح في القول والبيان هو الدليل إلى التأثير على المتلقي .

يقول في كتابه البيان والتبيين : / وقال موسى صلى الله عليه وسلم : (وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا بصدق) رغبة منه في غاية الإفصاح بالحجة لتكون الأعناق إليه أميل ، والعقول عنه أفهم ، والنفوس إليه أسرع / . *

* الشعر والشعراء لابن قتيبة ، حققه د. مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط ١ ، ١٩٨١

* البيان والتبيين ، الجاحظ ، تح عبد السلام محمد هارون ٧/١ ط ٥ ، ١٩٨٥ ، مطبعة المدني

ويشرح ابن المقفع منهجه في تقديم الثقافة بإيضاح في مقدمة كتابه
كليلة ودمنة • .

أولت الدول المعاصرة عناية جيدة بمكتبة الأطفال ، ففي روسيا
انطلقت في بداية القرن العشرين نحو / ٨٠٠٠ / مكتبة مخصصة لأدب
الأطفال تحت إشراف وزارة الثقافة ، أما وزارة التربية فقد أطلقت
نحو / ١٥٤ ٠٠٠ / مكتبة تحتوي على أدب الأطفال يمكن للطفل أن
يقرأ ويستعير الكتاب الذي يشاء .

وفي المجر أولت الدولة بالغ اهتمامها بثقافة الطفل ، فصدرت قرارات
رسمية لدعم المكتبات الخاصة بالطفل مما أدى إلى زيادة عدد
المكتبات من ٤٧ مكتبة سنة ١٩٥٧ إلى ١٩٠ مكتبة سنة ١٩٧٢ ،
وفي السويد تحظى مكتبات الأطفال بنحو أربعين قسماً خاصاً بالأطفال
في المكتبات العامة .

• كليلة ودمنة ، ابن المقفع ، مؤسسة الكتب الثقافية ط ١ ، ٢٠٠٢

شخصية كاتب الأطفال

يتمتع كاتب الأطفال بمميزات تميزه عن غيره سواء من الأدباء ، أو من بقية الناس ، فهو مهما سعى إلى إعطاء صورة جادة عن شخصيته من خلال المظهر ، إلا أن رائحة الطفولة تفوح منه ، ويمكن في أي موقف تصدر منه حركة تلقائية عفوية كتلقائية و عفوية الأطفال إلى درجة لفت النظر إلى تلك الحركة ، وتسجيل مأخذ عليه إذا كان في مجلس شعبي عام لأحد فيه يعرفه ، أما إذا كان في مجلس أدبي ، فإن ذلك يبدو طبيعياً أمام زملائه ، أو متذوقيه أدبه .

من هنا يمكنني القول بأن كاتب الأطفال الذي يجد نجاحاً وانتشاراً ، وقبولاً لدى كافة شرائح الأطفال ، هو شخص مايزال يحافظ على فطرية طفولته ، ويميل إلى عالم الطفولة أكثر من ميله إلى عالم الكبار ، ويعقد آمالاً على عالم الطفولة أكثر مما يعقدها على عالم الكبار ، وإذا أردت أن أقدمه من وجهة أخرى ، فأقول هو بالنسبة للتاريخ الأدبي ذاك الأديب الذي تفوح رائحة الرومانسية من أدبه حتى لو كتب عن الحروب ن إنه شخص رومانسي في كل تصرفاته ، ومواقفه

، وأدبه ، فحتى لو بلغ مائة سنة ، يكون بوسعه أن يكتب عن مشاعر الحب بحرارة وقوة تفوق حرارة وقوة وبراعة شخص في الخامسة والعشرين من عمره .

إن كاتب الأطفال المتمكن من الكتابة القصصية بشكل جيد ، هو شخص يعرف كيف يمارس أبعاد ومزايا طفولته بعداً بعداً ، وتفصيلاً تفصيلاً عندما يشرع في كتابة سطور المسودة الأولى لنص أدبي جديد موجه إلى عالم الطفولة .

يمكننا التعرف على هذه الشخصية من خلال قراءة سيرة حياة أشهر كاتب للأطفال وهو الكاتب الدنماركي (هانز كريستيان أندرسون) مؤلف قصة (بائعة أعواد الثقاب) وكذلك قصص : ملابس الامبرطورة الجديدة ، والبطيطة الدميمة .

إذن ، كاتب الأطفال هو طفل يرتدي ثياب الكبار لأن حجمه كبير ، طفل بذقن ولحية ، طفل هو في الوقت عينه أب ، وجد . إنه لا يمارس هذه الطفولة مع الآخرين فحسب ، أو عندما يشرع في الكتابة ، بل يمارسها حتى مع نفسه ، لأنه لا يتمثل هذه الطفولة على قدر ما هي جزء ثابت في بنيته

السيكولوجية ، ويعيش وقائعها كسائر أطفال العالم . لذلك فهو شخص ميال إلى محادثة ومجالس وتجمعات الأطفال ، ويمكنني القول أن يسمعهم بأذن ثالثة ، وينظر إليهم بعين ثالثة ، يسمع ما لا يسمعه الآخرون ، ويرى ما لا يراه الآخرون في عالم وتصرفات الأطفال ، وهو شخص يحالفه النجاح كثيراً في عقد علاقات متينة مع الأطفال ، وبالتالي لجعل الطفل يروي له في جلسة حميمية ما لا يرويهِ لغيره ، حتى لو كان ما يرويهِ بالغ الخطورة ، أو الحساسية .

وعلى قدر ما يشعر براحة وألفة وأنس في مجالسة الأطفال ، فإنهم كذلك يشعرون في مجالسته بألفة وأنس وارتياح ، ولعل ميل الطفل إلى هكذا شخص يفوق ميل الكبير إلى عالم الطفل ، ذلك أن الطفل يشعر في عمقه أنه بحاجة إلى شخص كبير يستوعب تصرفه ، ويستوعب جماليات مرحلته العمرية دون أن يخذشها ، أو يحط من مقدارها بالنسبة لوجهة نظر الطفل ، ووفق تصوره وتخيله للأشياء ، وهو على مدارج تلك المرحلة التكوينية التي يرى فيها كل شيء جميلاً وبالغ العذوبة ، وطوع أمره ، ولذلك تراه يستاء وينفر بقوة عندما لا تلبي رغباته أو طلباته التي يفهمها من وجهة نظره بأنها أوامر يصدرها إلى أقرب شخص كبير إليه ، وعليها أن تلقى التنفيذ الفوري والمباشر ، وهو جاد كل الجدة في هذه المشاعر لأنه ربما يبكي حتى الإغماء إذا اصطدم بممانعة ، أو بعدم استيعاب ، أجل إنه قد ينشج حتى الموت بسبب قطعة حلوى ، وقد يستغرق في الضحك التلقائي حتى الإغماء بسبب مداعبته للعبة .

يدرك الطفل في حضرة رجل استثنائي كهذا أنه لا يتحدث إلى طفل مثله ، في الوقت الذي يدرك فيه أنه لا يتحدث أيضاً إلى رجل كبير لا يستوعبه ، ينتابه إحساس في حضرة رجل مجيد كهذا أنه يتحدث إلى طفل يكبره بالحجم فقط ، إنه يرى طفولة جلية فيه ، ويخاطب طفولته ، فيرى الاستجابة من تلك الطفولة ، ولذلك تراه يمازحه ، ويتصرف معه كما لو أنه يتصرف مع طفل مجايل له . تبلغ بينهما درجة التفاهم حد أن الطفل يصغي إليه بجدية ، ويرى أنه يمكن أن يدافع عنه في عالم الكبار .

هنا ندرك بأننا إزاء شخص يمكن له بالفعل أن يقدم شيئاً مجدياً للطفل سواء من خلال العلاقة المباشرة بينهما ، أو من خلال الأدب . إننا

لأنتردد عندذاك من عقد آمال كبرى على هذا الشخص ، ونضع أطفالنا أمانة بين يديه ، وبين ظهراني أدبه .
وحتى في مسألة صحة الطفل ، فقد تعامل الأطباء والعلماء منذ القدم بشيء من الخصوصية والاستثنائية بالنسبة للطفل .
في كتابه / سياسة الصبيان وتدبيرهم / يقول ابن الجزار : / إن معرفة سياسة الصبيان وتدبير صحتهم باب عظيم الخطر جليل القدر ، ولم أر لأحد من الأوائل المتقدمين المتطبين كتاباً كاملاً فيه / .
نعثر في كتب التراث على بعض التوجهات الصحية بخصوص الطفل ، ومن ذلك ما كتبه القرطبي حول / خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولودين /
وما كتبه الطبري في كتابه / كفاية المعالجة البقرائية / ، وما ذكره ابن سينا في كتابه / القانون / وبعض مما كتب الرازي كما في كتابه / رسالة في أمراض الأطفال والعناية بهم / ، وابن البلدي .

اكتشف الإنسان الكتابة حتى يحقق لنفسه من خلالها شيئاً من الترويح عن النفس من جهة ، وشيئاً من الخلود من جهة أخرى ، ويمكن أن ننظر إلى الكتابة أيضاً بأنها تحقق شيئاً من النرجسية للكاتب الذي يظهر من خلالها معالم عبقريته للناس ن وبأنه إنسان متفوق وبه ميزة .
يظهر هذا بقوة في شعر المتنبي الذي يقول :

أنا الذي نظر الأعمى إلى شعري

وأسمعت كلماتي من به صمم

ويقول :

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله
ولامال في الدنيا لمن قل مجده

من يهن يسهل عليه الهوان
وما لجرح بميت إيلام

انعم ولذ فلأمر أواخر
أبدأً كما كانت لهن أوائل

وإن أنتك مذمتي من ناقص

فهي الشهادة لي بأني كامل

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا
فأضعف ما يمر به الوحول

بذا قضت الأيام ما بين أهلها
مصائب قوم عند قوم فوائد

في الكوميديا الإلهية يعلّق دانتي العبارة التالية على باب الجحيم :
/ أيها الداخلون إلى هذا المكان اتركوا خلفكم كل طموح لكم إلى أي
مستقبل ، واخلعوا هنا أمام هذه الأبواب كل أمل لكم بالنجاة
والنجاح / .

كل شيء في الحياة مبني على فكرة التطور والتدرج في اكتساب
المعارف والاكتشافات الحياتية المذهلة ، والكتابة كونها تصدر من
الإنسان الذي تسري عليه هذه المستجدات ، تخضع لعملية التطور
سواء في الأسلوب أو في الأفكار والرؤى ، لأن الكتابة في نهاية
الأمر بتقديري هي ليست أكثر من وجهات نظر وتصورات يقدمها
الكاتب ، وهذه الوجهات النظر والتصورات يمكن لها أن تزداد غنى
مع السنوات .

في مختار الصحاح : " كَتَبَ من باب نصر
و (كِتَاباً) أيضاً و (كتابة) و (الكتاب) أيضاً الفَرَضَ والحُكْمَ والقدر .
و (الكاتب) عند العرب العَالِمُ ومنه قوله تعالى : " أم عندهم الغيب
فهم يكتبون " . و (الكُتَّابُ) بالضم والتشديد (الكتبة) . و (الكُتَّابُ)
أيضاً و (المكتب) . و (اُكْتُبُ) أي كَتَبَ ومنه قوله تعالى : " اُكْتُبْهَا "
و اُكْتُبْ أيضاً كتب نفسه في ديوان السلطان . و (المُكْتَبُ) بوزن
المخرج الذي يُعَلِّمُ الكتابة ، و (اسْتَكْتَبَهُ) الشيء سأله أن يكتبه له .
و (المُكَاتِبَةُ) و (التُّكَاتِبُ) بمعنى . و (المُكَاتِبُ) العبد يُكَاتِبُ على نفسه
بثمنه فإذا سعى وإداه عَتَقَ " .

القراءة هي ذاكرة الإنسان ، والإنسان هو ذاكرة القراءة ، ولذلك فإن
هذا الإنسان لم يجد طريقاً إلى كماله إلا بعد أن تعلّم كيف يقرأ .
فإنسان لا يقرأ هو إنسان به نقص مهما كان موقعه الاجتماعي .

القراءة هي إحدى أهم مصادر المعرفة ، ومهما بلغ الإنسان من تطور
وتقنية لتلقي المعرفة ، فإنه لا يستغني عن القراءة ، فثمة معرفة
لا تتحقق إلا عبر الكلمة مهما تقدّم الزمن.

تتمية موهبة كتابة قصة الأطفال

ثم أننا نتساءل أمام شخص موهوب بالفعل كي يكون مشرعاً هاماً لفتح جديد في عالم الكتابة القصصية للطفل ، ما الذي يمكن لهذا الشخص أن يفعله حتى يخطو بقدميه إلى درجات متقدمة لم يسبقه إليها أحد في خصائص القصة الموجهة للطفل .

إذا نظرنا إلى هذا الشخص ، سنراه يبذل ما لديه من وقت وجهد حتى يتغلغل في عالم الطفولة التي قد يكون قد افتقد بعض مزاياها نتيجة لظروفه التربوية أو المعيشية .

إضافة إلى ذلك ، يحتاج كاتب قصة الطفل أن يقرأ بتدبر وتأمل ما يكتبه الطفل من أفكار ، وإن كان يتمتع بذائقة فنية أيضاً ، فيمكنه أن ينظر إلى ما يرسمه الأطفال ، هنا يستخلص شيئاً جديداً من عالم الأطفال ذاك الشيء الذي أخفق في استخلاصه وهو يتحدث إليهم وجهاً لوجه ، لأن الطفل يمكن ألا يقول كل شيء من خلال اللفظ اللساني المباشر بسبب بعض العوامل النفسية ، فهو قد يلقي حرجاً في استرسال حديث طويل ، أو يشعر بحياء وهو يعبر عن مشاعره ، بيد أنه من خلال التعبير الفني والأدبي ، لا يواجه هذه المشكلة ، بل قد يعبر بشكل أكثر تعبيراً وقوة لأن الخيال في هذه الحالة يكون له معيناً ، وأيضاً الوحدة التي يكون فيها تعينه على التركيز فيما يود البوح به . إذن ، عليه أن يكون قارئاً ليس جيداً للأدب الذي يكتبه الطفل ، بل بارعاً أيضاً ، ويتمتع بقوة ملاحظة في تلقي النص الأدبي الذي ينظر فيه .

من جهة أخرى ، يمكننا الاستفادة من القصة التي يكتبها الطفل في محاولة منا لإجراء مقارنات بينها وبين القصة التي يكتبها الكبار للأطفال ، وهي مقارنة يمكن أن تكتسب درجة الأهمية القصوى بالنسبة لكاتب الطفل على وجه الخصوص ، لأنه يستمد منها زاد التخاطب الأدبي مع مخيلة الطفل في علاقة تكاملية - هذه المرة - بين الطفل المبدع ، وبين الكاتب الكبير المتلقي ، ثم قلب هذه العلاقة بكثير من الحذر لتولد منها ثنائية علاقة تكاملية بين الكاتب المبدع ، وبين الطفل المتلقي .

إن ما يكتبه الطفل يكتسب أهمية أولى قبل أي كتابة أخرى سواء كانت من الكبار للكبار ، أو من الكبار للأطفال ، مهما كانت هذه الكتابات متقدمة في درجات التحليل والتوفيق ، لأنها بالنسبة لكاتب الطفل تفتقد روح التلقائية الطفلية في التعبير ، هذه التلقائية التي هي امتياز خاص بالأطفال دون غيرهم .

أريد أن أوضح بأن التلقائية هنا تشبه حمل التي تصوير فيديو ، واحدة يحملها رجل ، والأخرى يحملها طفل ، فنرى الرجل يركّز على مقاطع التصوير لأنه يشعر بأن المصوّر يمثله ، ويجلب عليه مسؤولية ، بيد أن الطفل يقوم بالتصوير التلقائي دون أن يخطر بباله أن المصوّر يمثله ، وإذا كان التصوير في موقع حساس ، فنلجأ إلى ما قد صوره الطفل بالدرجة الأولى لأنه يكون قد التقط الحقيقة كلها بتلقائيته .

التلقائية تكتسب درجة التصديق والثقة أكثر من غيرها ، وبناءً عليها قد تصدر أحكام قضائية هامة بحق الكبار الذين وقعوا في قفص تلقائية طفل .

وبناءً على هذه الثقة ، يعتمد الكثيرون على تلقائية الأطفال في معرفة الحقائق ، فعندما يخرج طفل مع أبيه لبعض الوقت من البيت ، يمكن أن تسأله أمه فيما بعد عن الأشخاص والأماكن والأحداث التي سمعها ، لأنها تدرك بأنه سيقول الحقيقة كلها ربما أكثر من أبيه الذي قد يوارى بعض الحقيقة .

وهذا يحدث أيضاً بالنسبة لأهل التحقيق في الحوادث والجرائم التي تقع بوجود أطفال ، ورغم أن الطفل شخص لا يؤخذ بقوله كونه دون سن الرشد أو البلوغ ، إلا أن قوله يؤخذ على محمل الثقة بالنسبة للمحقق ، كما هو الحال بالنسبة للأم في البيت .

وهكذا ، فإن كاتب قصة الطفل يثق بالقصة التي يكتبها الطفل ، ويسعى إلى قراءتها بكثير من التدبر والتأمل والتأويل .

علينا أن ننتبه إلى أن الطفل وهو يكتب ، لا يتجه بكتابته إلى الطفل مثلما يفعل كاتب قصة الطفل الذي يركّز كتابته إلى عالم الطفولة ، بل هي كتابة منبثقة من عالم الطفولة إلى عالم الكبار ، ولذلك يمكننا التعرف على الطفل من خلال ما يكتب حتى إذا كان هذا الطفل أصماً ، وهو حين يكتب لا يتجه بكتابته إلى شريحة معينة ، بل يكتب منطلقاً من طبيعة تلقائية الطفولة اللامسؤولة التي هي ميزة خاصة بالطفل دون غيره .

هنا علينا أن نتجنب بشيء من الحذر مقارنة الطفل بالمجنون حتى لو تشابهت بعض التصرفات والأقوال والسلوكيات* ، لأن المجنون هو شخص يدور في متاهة الجنون ، وعقله غير قابل للنمو والتطور ، في

* يمكن الاستفادة من كتابات : هارلوا ، ويانير ، وهافجوير ست ، وبرابر ، وبياجة ، وكولبيرج .

حين أن الطفل ، هو شخص عاقل يتقدم في درجات العقل والمعرفة والانفتاح على منارة الحياة .

لذلك يرى بيتر بروك أن نميز كثيراً بين الأدب الذي يكتب للطفل بشكل خاص ، وبين الأدب الذي يقرأه الطفل بشكل عام ، لأن الطفل قد يقرأ شيئاً للكبار من مكتبة البيت ، وقد يحدث العكس ، فيقرأ الكبير شيئاً من الأدب المكتوب بشكل حصري للطفل .

عندناك يمكننا التعرف بشكل جيد على خصائص وميزات قصة الطفل ، ويمكننا التفريق بينها وبين قصة الكبار ، والطفل أيضاً عليه أن يميز بين القصتين ، وعلى قصة الطفل أن تستقطبه أكثر من قصة الكبار إذا خير الطفل بين قراءة قصتين ، واحدة للأطفال ، والأخرى للكبار .

ثمة أمر بالغ الحساسية والخطورة في مسألة الكتابة للأطفال ، وهو تمتع بعض الأدباء بخيال يمكنني تسميته بـ الخيال المريض .

ترى هذا الكاتب يستخدم خياله المريض من خلال كتابة قصة يظن بأنه يوجهها إلى الأطفال ، وحقيقة الأمر فإن جانباً لا بأس به من الأدباء يستخدمون هذا الخيال المريض ليس في كتاباتهم فقط ، بل في واقع حياتهم الشخصية أيضاً مما يحيل هذا الخيال حياتهم إلى جحيم من خلال بعض التصورات والتكهنات التي تبلغ حد الهلوسة بهم .

فترى الكاتب أسير الخيال في حياته اليومية ، فإن ابتسمت له امرأة ، راح به الخيال شطر أبعاد لا تمس إلى الحقيقة بشيء ، وبعد ذلك يكتشف بأن المرأة كانت تبتسم وهي تنظر إلى ورقة شجرة خريف قد علقت برأسه دون أن ينتبه إليها .

وإن مر بجانب صديق وألقى عليه السلام ، ولم يجب الصديق ، راح به الخيال إلى أبعاد لا وجود لها إلا في مخيلته ، وحقيقة الأمر أن هذا

الصديق كان في عجلة من أمره لدرجة أنه لم يكن يرى أمامه بشكل جيد .

على هذا المنوال تتساقط شذرات هذا الخيال المريض في بعض القصص التي يكتبها الكبار سواء للصغار أو حتى للكبار . وهنا فإن الطفل هو أول من يكتشف هذا اللا مألوف الذي يسعى لاقتحام فطرية عالمه دون أن يحالفه النجاح في ذلك سواء أكان من خلال الكتابة ، أو من خلال العلاقة المباشرة بينهما وجهاً لوجه . إن الطفل لا يثق بهذا الكبير الذي يتصنع الكلمات والمواقف ، ويبدو أمامه مزدوجاً .

كان لقمان الحكيم يعتمد على الحكمة في مخاطبة الطفل ، وقد عرف عنه توجيهه لأبنائه ، ومن ذلك أنه ذات يوم خاطب ابنه قائلاً :

يا بني : إنما الوالدان باب من أبواب الجنة ، فإذا رضيا مضيت إلى الجنان ، وإن سخطا حجبت عنها .

يا بني : لا تجالس الفجار ، ولا تماشهم ، اتق أن ينزل عليهم عذاب من السماء فيصيبك معهم .

يا بني : جالس العلماء وماشهم ، عسى أن تنزل عليهم رحمة فتصيبك معهم .

يا بني : بع دنياك بأخرتك تربحهما جميعا ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا .

يا بني : عود لسانك أن يقول : اللهم اغفر لي . فإن لله ساعة لا يرد فيها دعاء .

وعندما رأى ابنه يصغي إليه بإنصات وقد استكانت ملامحه أردد يقول بهدوء بالغ :

جالس العلماء وزاحمهم بركبتك ، فإن الله سبحانه يحيي القلوب
الميتة بنور العلم ، كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء ، وإياك
ومنازعة العلماء فإن الحكمة نزلت من السماء صافية ، فلما تعلمها
الرجال صرفوها إلى هوى نفوسهم .

ينصت ابنه إليه هازا رأسه ملتصقا بالمزيد من أبيه فقال : يا بني لا
تشارك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم ،
قال الابن : يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد ، كيف يعلمها
الله ؟

يقول : يا بني إن أتتك مثقال حبة من خردل فلتكن في صخرة أو في
السموات أو في الأرض يأت الله بها إن الله لطيف خبير .
ثم أردف : يا بني أقم الصلاة ، وأمر بالمعروف وانه عن
المنكر ،

ثم بعد لحظات صمت أخرى والابن يتلقى الحكمة من أبيه بمزيد من
الإنصات ، وقد تسربت راحة نفسية إليه : واصبر على ما أصابك
إن ذلك من عزم الأمور .

صمت الأب مرة أخرى ، فرجع الابن رأسه إليه يسأله المزيد فقال :
ولا تصعر خدك للناس

هز الابن رأسه ، وهو يبكي
فقال : ولا تمش في الأرض مرحا
ثم بعد قليل أضاف :
إن الله لا يحب كل مختال فخور .
هز الابن رأسه وصار يبكي

فقال : واقصد في مشيك
ما يزال الابن يهز رأسه ، والدموع تنهمر من عينيه وينظر سائلا
إياه المزيد
فقال : واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت
الحمير .
ثم طلب إليه أن ينهض ليعيد أواني الطعام إلى البيت ، ويرى
حاجات أمه ، وعندما نهض الابن ليستودعه قال : يا بني إن
الحكمة أجلسست المساكين مجالس الملوك .
يا بني اتخذ طاعة الله تجارة ، تأتأك الأرباح من غير بضاعة .
يابني : أوصيك بخلال إن تمسكت بهن لم تزل سيذا :
أبسط خلقك للقريب والبعيد ، وأمسك جهلك عن الكريم واللئيم ،
واحفظ إخوانك ، وصل أقاربك ، وأمنهم من قبول قول ساع ، أو
سماع باغ يريد فسادك وخداعك ، وليكن إخوانك من إذا فارقتهم
وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك .
يابني : إياك والطمع ، فإنه فقر حاضر .
يابني ، كن لين الجانب ، قريب المعروف ، كثير التفكير ، قليل
الكلام ، إلا في الحق ، كثير البكاء ، قليل الفرح ، ولا تمازح ،
ولا تصاحب ، ولا تمار .
وإذا سكت فاسكت في تفكر ، وإذا تكلمت فتكلم بحكم .
يا بني ، لا يكن الديك أكيس منك ، إذا تقضى الليل خفق بجناحية ،
وصرخ إلى الله بالتسبيح ، وإياك والغفلة ، ولا تعلم بذلك الناس ،
ولا يغرنك الناس بما لا تعلم من نفسك . لا تغتر بقول الجاهل ، إن
في يدك لؤلؤة وأنت تعلم انها بعة .
يابني ، تعلم الخير وعلمه . واعلم أن الناس بخير مابقي الأول
حتى يعلم الآخر . وإنما كلام المعلم كالينابيع يحتاجها الناس يوما

هذا ويوما هذا ، فينفعون بها . وعليك بالتواضع فإن أحق الناس بالتواضع أعلمهم وأحسنهم له عملا .
يا بني ، تعلم الحكمة وأخلاقها كلها ، واجعلها لك شغلا ، وفرغ نفسك لها .

أسرع إلى كسبها ، وأبطئ إذا أنفقتها ، وقر عينا إذا جمعتها ، واعلم أن الحكمة لاتصلح إلا باللين ، وأن اللين جراب الحكمة ، وأن مثل الحكمة بغير تدبير بمنزلة ما في يدي غير خازنه أباحه سارقا ووجده معوزا ، أو كمثل غنم تروح في غير زريبة أتاها الذئب ووجدها ضائعة فأكلها ، وتعاهد مع ذلك لسانك ، واعلم أن اللسان باب الحكمة ، فإذا ضيعت الباب دخل من لا تريد أن يدخل ، فإذا حفظته حفظت الخزانة ، وإن من ملك لسانه إن قال ، قال بعلم ، وإن صمت صمت بحلم . إذا رأى لقوله قرارا تكلم ، وإن لم يره قرارا فإذا استنطقه من يريد الدين اجتهد ، وإن استنطقه السفهاء صمت .

يا بني ، لاتصوّب عينيك إلى زهرة الدنيا ، ولاتطلبين قضاء كل نهمة من الدنيا ، ولتكن نهمتك فيما يقربك إلى الله .

يا بني : لاتتعلم العلم لثلاث ، ولاتدعه لثلاث :
لاتتعلمه لتماري به ، ولا لتباهي به ، ولا لترائي به .
ولاتدعه زهادة فيه ، ولا حياء من الناس ، ولا رضا بالجهالة .

يا بني : اعتزل عدوك ، واحذر صديقك ، ولا تتعرض لما لايعنيك ، واعلم يا بني أن من كتم سره ، كان الخيار بيده .
خذ من الدنيا بلاغك ، وانفق فضول كسبك لأخرتك ، ولاترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا ، وعلى أعناق الرجال كلا .

كن كالأب لليتيم ، ولاتحاب القريب ، ولاتجالس السفية ، ولاتخالط
ذا الوجهين البتة .
واعلم يا بني أن للحاسد ثلاث علامات : يغتاب صاحبه إن غاب ،
ويتملق إذا شهد ، ويشمت بالمصيبة .
يا بني : إذا أردت أن تواخي رجلا فأغضبه قبل ذلك ، فإن أنصفك
عند غضبه وإلا فاحذره .. لتكن كلمتك طيبة ، وليكن وجهك بسطا
تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء .. أنزل الناس من
صاحبك منزلة من لاجحة له بك ولا بد لك منه .. كن كمن
لا يبتغي محمداً الناس ولا يكسب ذمهم ، فنفسه منه في عناء والناس
منه في راحة . . امتنع بما يخرج من فيك ، فإنك ماسكتٌ سالم ،
وإنما ينبغي لك من القول ما ينفعك .

يا بني : اتق الله ولا تترى الناس أنك تخشى الله ليكرموك ، وقلبك
فاجر . . لتكن ذنوبك بين عينيك ، وعملك خلف ظهرك ، وفر من
ذنوبك إلى الله ، ولا تستكثر عملاً . . أطع الله فإنه من أطاع الله
كفاه ما أهمه وعصمه من خلقه .. يا بني عليك بالصبر واليقين
ومجاهدة نفسك ، واعلم أن الصبر فيه الشوق ، فإذا صبرت عن
محارم الله وزهدت في الدنيا ، وتهاونت بالمصائب ، لم يكن أحب
إليك من الموت ، وأنت تترقبه .
وإياك والغفلة ، خف الله ولا تعلم بذلك الناس ، ولا يغرنك الناس بما
لا تعلم من نفسك ، ولا تغتر بقول الجاهل إن في يدك لؤلؤة وأنت
تعلم أنها بعة .

يا بني : كن لين الجانب ، قريب المعروف ، كثير التفكير ، قليل
الكلام إلا في الحق ، كثير البكاء ، قليل الفرح ، ولاتمازح ، ولا

تصاخب ، ولا تمار ، وإذا سكت فاسكت في تفكر ، وإذا تكلمت
فتكلم بحكم .

يا بني إذا أنعم الله عليك بنعمة فليبر أثرها عليك في شكرك
وتواضعك وإحسانك إلى من هو دونك .
واعلم يا بني أن لكل شيء آفة ، وآفة العمل : العجب .
لاترائي الناس بما يعلم الله منك غيرك ، ولا تعجبن بما تعمل وإن
كثر ، فإنك لاتدري أيقبل الله منك أم لا .
يابني : أشكر لمن أنعم عليك ، وأنعم على من شكرك ، فإنه لابقاء
للنعمة إذا كفرت ، ولا زوال لها إذا شكرت .

يا بني : إذا جاءك الشيطان من قبل الشك ، فاغلبه باليقين ، وإذا جاءك
من قبل الكسل فاغلبه بذكر القيامة ، وإذا جاءك من قبل الرغبة فاخبره
بأن الدنيا زائلة ، يا بني أكثر التبسم في وجوه أصحابك ، وكن كريماً
معهم ووافقهم على كل ما يقربك إلى الله تبارك وتعالى ويباعدك عن
المعصية ، وإذا استعانوك فأعنهم ، وإذا رأيتهم يعملون فاعمل معهم ،
وإذا تصدقوا فتصدق معهم ، واسمع لمن هو أكبر منك ، ولا تجالس
السفيه ، ولا تخالط ذا الوجهين ، وأطفئ الشر بالخير .

وذات يوم أراد ابنه الصغير أن يعرف منه السبيل إلى رضاء الناس

فقال له : يا أبي أريد أن أعرف منك أمراً

قال : نعم يا بني

قال : كيف أستطيع أن أرضي الناس جميعاً

لم يجبه لقمان ، وفي صبيحة اليوم التالي طلب أن يصطحبه في طريق
قبل ذهابهما إلى العمل في محل الخياطة .
قال نادان : أجل يا أبي
طلب إليه لقمان أن يحضر الحمار .
أسرع نادان في إخراج الحمار إلى الطريق ومضيا بعيدا عن
الديار .
بعد شيء من المسير والابن ينتظر ما يقول حتى يعرف إلى أين يتجه
مع أبيه .
أوقف لقمان الحمار ، وبعد قليل ركبه داعيا الابن أن يمشي بجانبه في
الطريق .
مشى نادان وهو ينتظر ما يقوله ، ولقمان يمضي راكباً الحمار دون أن
يتحدث بشيء .
بعد مسير طويل اقتربا من بعض الناس كانوا يجلسون تحت فيء
شجرة ، مرّا أمامهم والقبيا عليهم السلام .
أجابوا عن سلامهما ، ثم قال أحدهم : أما نظرتم إلى هذا الشيخ القاسي
، يركب الحمار دون أن يأبه بابنه الصغير الذي يمشي على قدميه .
التفت الابن ليجيب عنه ، فمنعه لقمان وأكمل المسير .
بعد غيابهما عن ذلك الجمع أوقف لقمان الحمار ، وطلب من ابنه أن
يركب بدلا عنه .
تردد الابن ، إلا أنه أمره أن يفعل ذلك ، فاضطر إلى ركوب الحمار
تاركا أباه العجوز يمشي بجانبه .
مضيا في الطريق حتى اقتربا من شخصين يسيران في ذات الطريق
، وعندما مرّا من أمامهما وتبادلوا السلام فيما بينهم ، سمعا صوت
أحدهم يقول لصاحبه : أنظر .. أنظر ، ياللعجب ، هذا الابن العاق
ركب الحمار تاركا أباه الشيخ يمشي على قدميه دون أن يكرمه .

أراد الابن أن يجيب عنه فمنعه الأب وطلب أن يمضي بالحمار في الطريق .
بعد مسير آخر طلب إليه أن يقف ، وعندذاك ركب هو الآخر الحمار مع ابنه ، ومضيا في الطريق .
مرّا بجانب جمع من الناس يجلسون أمام بيت ، ألقيا عليهم السلام .
أجابوا عن السلام ، ثم ما لبث أن قال أحدهم : يا لقسوة قلوبهما ، ركبا معا على هذا الحمار المسكين دون أن يرفأفا به .
بعد بعض المسير طلب من ابنه أن يوقف الحمار لينزلا ويمشيا إلى جانبه .
مشيا إلى جانب الحمار حتى مرّا بثلاثة رجال يمضون في الطريق ، ألقيا عليهم السلام ، وبعد أن أجابوا قال أحدهم لصاحبيه : أما رأيتم هذا العجب ، معهما حمار ولا يركبانه .

عندذاك وقف الابن وقال لأبيه : الآن أجبتني خير إجابة عن سؤال البارحة يا أبت

إذن علينا أن ندرك بأن كاتب الطفل مهما بلغ من إمكانيات أدبية ، فإنه لاينجح في كتابة قصة تعبر عن تفاصيل عالم الطفولة كما يحالف النجاح الطفل في هذه المهمة .
الكتابة للطفل عليها أن تلج إلى عالم الطفولة وتتجاوز مع الطفل محافظة على مرحلته العمرية من شتى النواحي ، وإلا فإنه يصطدم بها ، ويرفضها وهو يشعر بأنها كتابة دخيلة على محراب عالمه الطفلي .

تصنيف قصص الأطفال

عمر الطفولة يبدأ من اليوم الأول ولا ينتهي قبل السادسة عشرة من عمره ، يمكننا أن نقول عن أي شخص يتراوح بين هذه الفترة الزمنية : أنه طفل ، لكن يوجد طفل في بدء مرحلة الطفولة ، ويوجد طفل في متوسط مرحلة الطفولة ، ويوجد طفل في أواخر مرحلة طفولته . وكل مرحلة تتمتع بخصائصها وميزاتها الانفتاحية ، والإرسالية ، والاستقبالية .

يمكنني هنا أن أضع السنوات الافتراضية لمراحل الطفولة :

- أ - المرحلة الأولى ، من اليوم الأول ، وحتى نهاية السنة الأولى / وهي مرحلة التكوين الأولى للدخول الفعلي إلى الحياة .
- ب - المرحلة الثانية ، من السنة الثانية ، ولغاية نهاية السنة الرابعة / وهي مرحلة محاولة لفت النظر من خلال الأفعال التي يقوم بها ، مرحلة إثبات حضوره في البيت إلى درجة إزعاج أبويه ، لأنه في هذه المرحلة لا يترك شيئاً في البيت إلا ويسعى إلى تحريكه ، وهنا يستقبل خياله أوسع المشاهد القصصية الخيالية ، ويكون الخيال القصصي إيجابياً بالنسبة إليه .
- ت - المرحلة الانتقالية الثالثة ، من السنة الخامسة ، ولغاية نهاية السنة الثامنة ، وهي مرحلة بدايات ظهور مشاعر الخجل من بعض تصرفاته ،

يبدأ في هذه المرحلة في التفكير الأولي باستقلاليته ، وقد تراوده بعض الأفكار السريعة لرغبته في المهنة التي يرغب بها في المستقبل ، وهنا يستقبل القصص والحكايا المثيرة ، والتي تدهشه ،

ث - المرحلة الرابعة ، من السنة التاسعة ، ولغاية نهاية السنة الثانية عشرة /

يرتاح في هذه المرحلة إلى المشاهد القصصية التي تجنح شطروح المغامرة ، وقوة الإنسان ، وسوبرمانيته ، فهو ينظر إلى الحياة بمحمل الجد ، ويريد أن يكون له شأن فعلي فيها .

يمكن على سبيل المثال أن تُروى له قصة مأخوذة من فكرة من التراث الديني على النحو التالي :

جلست الجدة نجاة جوار حفيدتها منار حتى تروي لها قصة جديدة ريثما تعود أمها التي أخذت أختها الصغيرة براءة إلى المستوصف من أجل تلقيحها .

قالت لها : اليوم يا حفيدتي الصغيرة أروي لك قصة الطيبة قالت منار : قصصك كلها جميلة يا جدتي ، أريد أن أتعرف على هذه الطيبة .

قالت الجدة : كان هناك صياد يصطاد الغزلان من الأودية والجبال ، وذات مرة اصطاد غزالة فربطها حتى لا تهرب ، ويستطيع أن يصطاد غيرها .

هزت منار رأسها قائلة : نعم يا جدتي

قالت الجدة : مرّ رجل من المكان الذي فيه الظبية ، ولمّا رأته ، أحست بأنه رجل غير عادي ، نظراتها إليه جعلتها تشعر بأنها أمام رجل أرسله الله لنجدتها .
/ رجل ظاهر الوضاعة، أبلج الوجه ، لم تعبهُ نُحلة ولم تُزرِ به صُقلة ، وسيمٌ قسيم ، في عينيه دَعَج ، وفي أشفاره وَطَف ، وفي صوته ، و في عنقه سَطع ، وفي لحيته كثائَة ، أزجُ أقرن، إن صَمَتَ فعليه الوقار، و إن تكلم سما ، علاهُ البهاء، أجمل الناس و أبهاهم من بعيد، وأجلاهم و أحسنهم من قريب، حلُو المنطق، فصل لا تذر ولا هذر ، كأنّ منطقه خرزات نظم يتحدّرن، ربعة ، لا يأس من طول، ولا تقنّجُمه عين من قصر، عُصن بين غصنين، محشود محفود ، لا عابس ولا مُفَنّد /

عندئذ نادى بأعلى صوتها وهي تنظر إليه بدهشة : يا سيدي .. النجدة .

سمع الرجل صوتها ودنا منها فأردفت الظبية : يا سيدي ، لقد اصطادني ذلك الصياد وربطني هنا .
وقف الرجل بجوارها يلقي نظرة إليها ، ثم إلى الصياد ، فقالت الظبية والدموع تملأ عينيها : استيقظت باكراً يا سيدي ، وكنتُ جائعة ، لم أستطع أن أضع صغاري ، تركتها خلف ذلك الجبل وجئتُ باحثة عن طعام حتى أعود وأرضعها .
ثم بلعت ريقها الجاف واستأنفت : لقد وجدتُ طعاماً يا سيدي ، تناولته على عجل وسلكتُ طريق العودة راكضة ، وصوت صغاري لا يفارق سمعي ، وهنا يا سيدي فوجئتُ بهذا الصياد الذي نصب لي فخاً واصطادني .

كل هذا يا بنتي والرجل يستمع إلى هذه الطيبة التي استأنفت حديثها وهي تنظر إليه متوسلة : أسألك يا سيدي أن تشفع لي وتطلب من هذا الصياد أن يفك أسري حتى أذهب إلى صغاري التي تتضور جوعاً بانتظاري ، أضعها حتى تشبع ، وأعاهدك بأنني سأعود إلى مكاني هذا بين يدي الصياد .
نظرت منار إلى جدتها قائلة : هه يا جدتي ، هل عادت إلى صغارها ؟

قالت الجدة : طلب الرجل من الصياد أن يحل رباطها لتذهب فترضع صغارها وتعود ، وتعهد للصياد بأنه يكفل عودة الطيبة ، ويتحمل مسؤولية عدم عودتها .
أمام ذلك راح الصياد يحرر الطيبة التي هرعت كالسهم حتى توارت عن الأنظار خلف الجبل .

بعد حين من الانتظار تراءت الطيبة من خلف الجبل حتى وصلت إلى ذات المكان الذي كانت مربوطة فيه ، وتقدم الصياد ليربطها ، لكن الرجل أراد أن يكافئها على وفائها بعهدتها معه ، فطلب من الصياد أن يطلق سراحها ثانية .
استجاب الصياد لتوجيه الرجل بسرور ، فهرعت الطيبة وهي تشدو : حقا إنك رحمة مهداة يا سيدي ، وراحت تروي ما وقع معها لصغارها

ج - المرحلة الانتقالية الخامسة ، من السنة الثالثة عشرة ، ولغاية نهاية السنة السادسة عشرة .

يرأوده إحساس بالمسؤولية تجاه البيت ، واسم العائلة ، وقد يسعى إلى تعلّم بعض المهن ، ويشعر بفرحة و متعة عندما يجلب إلى البيت سلعة اقتداءً بأبيه ، يريد في هذه المرحلة الانتقالية أن يثبت لأبيه بأنه رجل ، والبنت تريد أيضاً أن توحى لأمها - من خلال بعض التصرفات - بأنها فتاة ، وكما أن الولد يريد أن يثبت لأبيه بأنه بات رجلاً من خلال عنايته بأمه وأخوته ، فإن البنت تسعى إلى إثبات ذلك من خلال عنايتها بأبيها ، وتمتلى سروراً عندما تجلب له كأس ماء ، أو تصنع له كأساً من العصير، أو تسلق له بيضة ، وهنا يكون الطفل مهيناً لقراءة القصص التي تخلو من الألوان والصور ، ولم يعد يميل إلى تلك القصص التي كان يقرأها أو يسمعها عندما كان في المرحلة الثانية من عمره الطفولي .

وعندما يجد الأب شيئاً من الخشونة أو العنف على ابنه وقد بلغ السادسة عشرة من عمره : يمكن أن يحثه بلغة غير مباشرة قائلاً على سبيل المثال :

على جناح بغتة تعكر صفاء الطبيعة ولاحت بدايات عاصفة محتقنة في الأفق، كل الكائنات المنتشرة في حضن الطبيعة فترة ما قبل الظهيرة هذه أصابها الجفل من التحول المباغت في السكون الخريفي، وغدا كل كائن صغير وكبير مثل السهم وصولاً إلى وكره، أو باحثاً عن أي ملجأ يقيه عواقب هذه العاصفة التي بدت كهزة في قلب الخريف الآمن.

في هذه الأثناء كان ثمة نمر يلتهم فريسة وقع عليها للتو، فانتبه إلى الضجيج الذي غدا شبيهاً بحرب فتاكة من حوله، رفع رأسه بحركة

سريعة وأدرك بأنه بات قاب قوسين أو أدنى من دائرة الخطر، كانت العاصفة إذ ذاك قد غدت على مقربة منه ومقدمتها تعصف بكل شيء في دربها، فلم يجد النمر الممتلى بالرعب سوى أن يهرع أمام العاصفة عليها لا تلحقه أو عله يجد مصادفة ملجأ يحميه من هذا الغضب العاصف.

يهرع النمر.. ما يزال يهرع بقوة ركض لم يكن يتخيلها في طاقته، والعاصفة القادمة تلاحقه بسرعة الصاعقة.

لم يعد يعرف إن كان هو الذي يقترب منها، أو هي التي تدنو لتشرب روحه وتقتت جسده كأنه لم يكن.

تمتلى روحه بالذعر الذي يفجر من طرفه طاقة أقوى للركض، كل ذرة فيه ترتعد رعباً من النهاية المأسوية الشرسة، إنها العاصفة التي تحصد الغابات والبيوت وحتى الجبال الصغيرة، تخلع كل شيء من الجبال الشاهقة فتحيلها إلى جبال ملساء.

يتخيل النمر كل هذه المناظر وهو يرى الآثار تتطاير وتتناثر أمامه في مقدمة العاصفة، كل هذه المناظر تمضي أمام عينيه وهو طائر كسهم طائش لا يدري أين سيقع.. يجري من مصير مجهول يلاحقه ثانية بثانية وهو يشعر بأنه يهرب نحو عدم الخروج من الحياة برمتها، من الغابات والأشجار ولحظات الظفر بطعام شهى.

بغته أحس بدنو العاصفة فلم يعرف ما الذي سيفعله، كل ما هو مصر عليه هو عدم الاستسلام كما تستسلم تلك الفرائس الواهنة لفكيه، لم يعجبه أن يتخيل نفسه في وضع كهذا يقع فريسة مستسلمة لفكي العاصفة الشرسة، وبغته اصطدم جسده بصخرة ضخمة بدت صامدة

في وجه الريح، وفي رفة جفن رأى نفسه وسط العاصفة وقد تشبثت يده وقدماه بالصخرة والرياح العاتية تمر عليه بشدة لم يكن يتخيلها تاركة أزيزاً نارياً في أذنيه.

لكنه لقاء ذلك أحس بأمر غريب عندما أدرك بأنه تمكن جيداً من الصخرة وقد حفر مواضع في جسد الصخرة الصامدة، وهذا ما زاده إصراراً على المواجهة وعدم ترك جسده يذهب هباءً، فقد استطاع أن يحفر في الصخر وهذه حقيقة يلمسها، لكنه بذات الوقت أخذ يحس بأن العاصفة تقتلع بعضاً من وبره، فلم يأبه لذلك قائلاً لنفسه بأن الوبر سيعود وينمو مرة أخرى عندما يأتي فصل الربيع.

بعد لحظات رعب أخرى أحس بشيء من جلده يُقتلع في مهيب قوة العاصفة، فامتلاً ذعراً وهو يشعر بأن الجلد ينسلخ عن جسده ويعاني حرقة لم يذوقها طوال حياته، إلا أنه يتمسك ببقايا أمل ما دام لم يستسلم نهائياً، وما دامت لديه قدرة على المواجهة والصمود وعدم الاستسلام لحرب الطبيعة.

أدرك بأن الجلد انسلخ تماماً وأنه لبث جسداً بلا جلد يواجه عنف العاصفة وجحيم الألم في لحظة واحدة.

مرت لحظات مزلزة أخرى على روحة التي ضاقت به وضاق بها وهو يواجه ما لم يكن يتخيله من لحظات يبلغ فيها العنف ذروته وتبلغ حدة الألم قمته، وهنيهة هنيهة أخذت نيران العاصفة تخمد عليه، عبّ نفساً طويلاً وبدأ يسدل قوائمه شيئاً فشيئاً عن الصخرة وهو يرى بصيص ضوء يلوح من بعيد كأنه ضوء قادم بعد دهر من ظلام أزلي.

ترك قوائمه من الصخرة ليجلس على ذيله يعب أنفاساً طويلة ويتأمل
نعمة الهدوء.

عندها قال لنفسه: كم أنت قوي أيها النمر، وكم أنك متشبث بالحياة.

لكنه بعد هنيهة بكى ووبخ نفسه على لحظات الرعب التي عاشها قائلاً:
لو كنت أعرف حجم هذه القوة في جسدي لما انهزمت من العاصفة.

واكتشف عند ذاك بأن ما تركه الرعب من أثر عليه كان أسوأ مما
تركته العاصفة وأنه لو واجه الرياح بالقوة التي اكتشفها للتو لعجزت
عن سلخ جلده، ولعجزت عن تسبب كل ذاك الذعر في نفسه، ثم ألقى
نظرة إلى جسده المسلوخ وأردف: في الربيع القادم سوف ينمو جسدي
بجلد جديد.

ومضى في حضن الطبيعة التي بدت أمامه وليدة للتو..

تساقط رذاذ خفيف من السماء وسطعت الشمس مرة أخرى على
الأرض خرجت على إثرها الحيوانات من مخابئها، أحس النمر بجوع
ورغبة في التقاط فريسة، لكنه تذكر قوته الهائلة التي يتمتع بها وقال:
وأنا بكل هذه القوة الهائلة، كم كنت جباناً في افتراس تلك الحيوانات
الواهنة، إنني خجول من كل هذه القوة التي اكتشفتها في طاقتي.

أدرك بأنه عندما كان يطارد فريسة كان بذات الوقت يجرب قوته
ليكتشفها، وكان دافعه الجبن الكامن في أعماقه، ولذلك لم يكن بوسعه
أن يكتشف كل طاقة القوة التي يتمتع بها رغم كل تلك الفرائس التي
كان يقع بها أحياناً حتى وهو شبهان: أجل لقد كنت جباناً أيها النمر..
كنت جباناً وأنت تجرب جبنك على الحيوانات الآمنة الضعيفة.

تذكر حجم الألم الذي عاشه في لحظات سلخ الجلد عن جسده وهمهم لنفسه: لن يكون الجوع أشرس من تلك العاصفة.

من يومها وهو يقاوم رغبة الافتراس كلما لاحت له فريسة ليصبح يوماً بعد يوم نباتياً ويزداد قوة على قوة • .

أمام هذا التقسيم الزمني يمكنني أن أفرز النتاج القصصي بحسب المراحل التي يلجها الطفل ، وليس الكاتب هو الذي يقرر أن تكون قصته المرحلة طفلية دون غيرها ، وإذا صنع الكاتب ذلك ، فإنه يتصنع الكتابة حتى تكون مناسبة لمرحلة زمنية خاصة بالطفل ، لكن ذلك يقع على عاتق الناقد البارع المتمكن الذي يستطيع أن يفرز كتاب القصة الطفلية ، وأيضاً يفرز نتاج كاتب واحد من خلال المراحل الزمنية التي كتب فيها ، فيقول على سبيل المثال أن المرحلة الأولى التي كتب فيها أندرسون قصصه تصلح لسنوات ما بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة ، والمرحلة الثانية تصلح للأطفال ما بين التاسعة والثانية عشرة ، والمرحلة الثالثة تصلح للأطفال ما بين الخامسة والثامنة .

لأن كاتب الطفل كلما تقدم في كتابته للطفل ، كلما تعرف على عالم الطفولة أكثر ، وما ذلك لأنه يتقدم نحو الشيخوخة التي هي شبيهة بمرحلة العودة إلى الطفولة ، من حيث اشتعال المخيلة مرة أخرى ، وكذلك التعامل وهن أعضاء الجسد ، وآلام الأسنان ، والوقاية من بعض ألوان الطعام والشراب .

إن عامل الطقس أيضاً يلعب دوراً في مراحل الطفولة وسنواتها ، فمثلاً في الدول الاسكندنافية المعروفة ببرودة الطقس ، يمكن أن تمتد

• غيوم من الشرق - مجموعة قصصية - عبد الباقي يوسف - منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق ٢٠٠٦

مرحلة الطفولة إلى السادسة عشرة ، بينما لا تكاد تتجاوز الثانية عشرة في البلدان الحارة ، أو شديدة الحرارة مثل بعض مناطق الدول الإفريقية ، وبناء على هذا الاختلاف ، تختلف مرحلة المراهقة أيضاً .

وعلى العموم فيمكننا أن نرى شذرات من هذا التقسيم التلقائي حتى في الأدب المكتوب لشرائح الكبار ، فهناك رواية مقروءة لدى مختلف شرائح الكبار ، وهناك رواية لا تقرأها ولا تستوعبها ولا تستمتع بها إلا النخبة التي تقدمت في مسألة الوعي القرائي ، فشخص قرأ مئة رواية في عمره ، ليس كرجل قرأ ألفي رواية ، ولذلك فحتى في القرآن الكريم ، فإن الإنسان يرتقي على قدر ما يقرأ ويتدبر في قراءاته ، ورجل قرأ القرآن مائة مرة ، ليس كرجل قرأ القرآن ألفي مرة ، والقراءة بالنسبة للرجلين تختلف .

وهذا يحدث بالنسبة للأطفال ، فيتم تعليمهم وفق مناهج مخصصة لحفظ وقراءة وتلقي القرآن ، سواء من خلال اختيار الأجزاء ، أو من خلال الأحجام المناسبة التي يمكن أن تناسب الطفل ، لأن الطفل ليس بوسعه أن يحمل طبعة ضخمة من القرآن الكريم ، ولا أن يقرأ من هذه الطبعة ، ولذلك فهو يتدرج في تلقي وقراءة ومعرفة القرآن وفق المراحل العمرية التي يلجها .

المرأة و الكتابة للطفل

أريد أن أقول هنا بأن المرأة الكاتبة يحالفها النجاح في الكتابة للطفل بدرجة أعلى من الرجل ، ذلك أن المرأة تمي مع الطفل فترة أكثر من الرجل ، وهي تتحاور مع الطفل أكثر مما يفعل الرجل ، كذلك فهي تحمل الطفل وهو جنين وتعقد علاقة أولية معه لمدة تسعة أشهر ، وهذا ما لا يكون للرجل .

حتى في البيت يمكن أن نلاحظ بأن المرأة تستوعب الطفل أكثر من الرجل ، ويمكن للرجل أن ينفّر من إزعاجات ابنه ، أو من بكائه الطويل في الليل ، فيخرج إلى غرفة أخرى ليبتعد عنه ويحقق لنفسه راحة وسكينة ، بيد أن المرأة لايمكن لها أن تفعل ذلك ، بل تبقى تتحايل على طفلها بكل الوسائل ، وتهدهده حتى ترضيه ويغفو بين يديها .

إنها لا تتهرب من مسؤوليتها عندما يهرب الأب من مسؤوليته ، وتصبر على طفلها عندما ينفد صبر الأب ، ولذلك فإن هذه الأم يمكنها مخاطبة طفلها أدبياً بدرجة أكثر قرباً من الرجل . أقول طفلها لأن أي امرأة عندما تنظر إلى أي طفل في العالم ، ينتابها إحساس بأنه جزء منها بسبب المعاناة المشتركة التي تشترك فيها نساء العالم ، وبسبب

مشاعر الأمومة الفطرية المشتركة بين النساء كافة سواء أكن أمهات ،
أم كن عانسات ، أم كن
فتيات .

أقول مشاعر الأمومة الفطرية المشتركة ، لأن مشاعر الأب هي
مشاعر مكتسبة بالمقارنة مع مشاعر الأم كونه لا يشعر بمعنى الأبوة
الحقيقية إلا بعد ولادة الطفل ، ونموه ، ومداعبته ، والتعرف على
ملامحه ، وكلما كبر الطفل ، أكسب الأب مشاعر مسؤولية الأبوة ،
بينما الأم تطعمه وتسقيه ، وتعالجه ، وتداعبه ، وتحثه تسعة شهور
في بطنها قبل تراه رأي العين ، وهي بذلك لاتزداد أمومة له فقط ،
بل تزداد حناناً له أيضاً ، هذا الحنان الذي يجعلها تقدي طفلها بعمرها
من خلال كلماتها اليومية معه ، في حين لايجعل الأب من نفسه قرباناً
لابنه على الأقل من خلال الألفاظ كما تفعل الأم بمسرة .

تتابع الأم مراحل نمو طفلها حركة حركة ،
في الشهر الأول تنظر إلى يديه القريبتين من بعضهما ، وتشابك
أصابعه .

في الشهر الثاني يبدأ يرفع رأسه ، وينظر إلى الحركات من حوله ،
وترسم على شفثيه بسمة صغيرة .

في الشهر الثالث يحرك قدميه ، ويمص أصابعه ، يكثر البكاء .
في الشهر الرابع يرفع رأسه بشكل جيد ، ويريد أن يتحرك في
محاولة لينقلب على يمينه أو يساره ، يضحك بصوت ملفت .

في الشهر الخامس يستقيم ظهره وهي تحاول أن تجلسه ، يحدق في
الوجوه وكأنه يبدأ في تمييزها .

في الشهر السادس تنظر إليه وهو ينقلب على بطنه ويحاول أن يرفع
جسده بواسطة يديه ، وتتابع تشكّل أسنانه اللبنية المؤقتة .

في الشهر السابع توقفه على قدميه ، فيلبث واقفاً بمساعدتها ، ينتزع الدمى والألعاب من يديها ، وتسمعه لأول مرة يلفظ : مم .. أي .. آه

في الشهر الثامن توقفه على قدميه ، وتدعه لبريهات فيميل ، تمد يديها لتسندته وهي تدر به على الوقوف ، يعتمد على يديه في مسك زجاجة الحليب ، ينقلها من يد إلى أخرى .

في الشهر التاسع تراقبه وهو يزحف بشكل جدي على يديه وقدميه ، يقول : ما .. با .. دا .

في الشهر العاشر يقف على قدميه بمساعدة أقل منها ، يحاول أن يقلدها في بعض الحركات ، يبحث بيديه عن الدمى والألعاب .
في الشهر الحادي عشر تمسك به من الخلف فيمد خطواته نحو المشي وهو يقول : ماما .. دادا .

تضع خيطا في أسفل قدميه ليقطع الخيط ويمد خطواته.
بعد شهر يمد خطوات المسير بشكل أفضل ويبتعد عنها ، يرفع الملعقة ويأكل بها ، ويصفق لأول مرة .
في الشهر الخامس عشر يرفع جسده إلى الأرجوحة ، وينزل منها ، يصر على بعض الأشياء التي يريدتها .

بعد ثلاثة شهور تلاعبه ، ويركض ، يسمي بعض الأشياء التي يراها .
إنها تعيش كل هذه المراحل مع طفلها ، وتتابعه خطوة بخطوة ، لذلك يمكننا ببساطة ملاحظة امرأة في أي شارع من شوارع العالم ، أو في أي حافلة ، تتقدم نحو طفل وتأذن أمه حتى تظفر منه بقبلة ، وقد تبينت لي هذه الحقيقة من خلال التجربة الشخصية بعد ولادة ابنتي / روها / التي هي مع كتابة هذه السطور في سنتها الثالثة والنصف ، وولادة ابني / لوند / الذي هو في سنته الأولى والنصف ، أذكر هذا لأنني ما أزال في ذروة المشاهدة اليومية لما تبين ، ويتبين معي .

لاحظتُ هذه الحقيقة التي لفتت نظري بسبب التكرار ، ولأننا نسافر كثيراً ، يمكنني القول بأن آلاف النسوة تقدمن من زوجتي وهن يقلن : أتسمحين يامدام أن اقبلها .
ثم تتي امرأة اخرى وهي تنظر إلى أخيها قائلة : أتسمحين يامدام أن أقبله ؟

وعند الموافقة أرى المرأة تحمل الطفل في حضنها ، وتقبله ، ثم تعطيه هدية صغيرة مثل قطعة سكر ، أو شوكولا ، أو بسكوت . عندئذ أرى بأن صدر المرأة انشرح وهي تمضي بسرور .
وما كان يحدث بتكرار مع ابنتي ، يحدث الآن مع ابني لأنه يجذب عيون النساء أكثر بسبب صغر سنه .

أذكر هذه الوقائع الشخصية لأنني أرغب في أن أعزز فكرة إمكانية كتابة المرأة للطفل بدرجة أبلغ وأعمق مما قد يقوم به أي رجل في العالم ، في الوقت الذي لاأكاد أذكر فيه رجلاً واحداً تقدم من زوجتي واستأذنها كي يظفر بقبلة من ابنتي أو من أخيها مقارنة بكل تلك الأعداد الهائلة من النسوة المختلفات الأعمار والمواقع والألوان واللغات والأديان .

وأمام جواب واحد كنتُ أردد لنفسي : الرجل الذي يتهرب من مسؤوليته الأبوية بعد منتصف الليل ، لايصعب عليه ألا تتنابه مشاعر أبوية تجاه طفل رآه صدفة في حافلة نقل ما ، أو في حانوت ما .

إذن ، هذا الرجل إذا كان كاتباً للأطفال ، هل سيبلغ المبلغ الذي تحققه المرأة في التعبير عن عالم الطفل ، وفي اعتقادي أن الأمومة ذاتها هي لمسة ناعمة قادمة من بستان الطفولة ، في حين أن الأبوة هي كلمة تحتل الخشونة والرعونة أكثر مما تتسع لها كلمة ((الأمومة)) .

من جهة أخرى ، فإن شخصية الأم تذكرنا بسنوات الطفولة أكثر مما تذكرنا شخصية الأب ، فإذا نظرنا إلى أمهاتنا ، تذكرنا ملامح الطفولة وفيض براءتها ، وفصول سنواتها .

لذلك فإن أول ما يوجه للرجل العاق بأمه : تذكر بأنها حملتك تسعة أشهر في بطنها ، وأرضعتك حليباً من ثديها .
بمعنى تذكر سنوات طفولتك فيها ، ولاتنس تلك البصمات الخالدة التي تركتها على بدنك ، وعلى نفسك أيضاً .

إذا نظرنا إلى غالبية الكتابات التي كتبها الرجل للطفل ، سنرى ملامح الموعظة ، وإن بدت مغلفة بأغلفة فنية ، وتقنيات أدبية ، نشعر بأن الكاتب لم يتخلص من مشاعره بأنه كبير ، ويريد أن يسدي نصحاً ، أو موعظة لطفل صغير ، وفي بعض الأحيان ، نراه يتعامل مع الطفل كما لو أنه

(يأخذه على قدر عقله) كمن يمسك بيد طفل ويعبر به الشارع ، أو كما يمكننا القول : إنه يضحك على الطفل ، ويستهزئ به بطريقة غير مباشرة .

ومعلوم أن الطفل ليس من اليسر الضحك عليه مهما كان صغيراً ، وهو عندما يرضى عن تصرفات معينة ، يرضى عنها برضى تام ، وبذكاء أيضاً ، أعني الذكاء الفطري للطفل ، وهو ليس غيبياً بأي مقياس من المقاييس ، وهو ليس مجنوناً لأنه يمتلك عقلاً قابلاً للنمو والتطور والانفتاح . ولعلي أذكر مقولة لأحد الفلاسفة عرّف فيها الطفل قائلاً بأن الطفل في حقيقة الأمر هو فيلسوف صغير .

وكما في وقائع التعامل اليومي ، يمكن للطفل أن يشعر بأن الذي يتحدث معه يكذب عليه ، فلا يصدق ، ولا يثق به ، ويبقى مصراً

على موقفه ، فإنه كذلك في القصة التي يقرأها ، يشعر بأن هذه القصة تستهزئ بمدركاته ، لذلك لا يكمل قراءتها ، ولا يصدّق كاتبها ، ويتحاشى أن يقرأ له مرة أخرى .

توظيف الخيال في قصة الأطفال

لوقلنا بأننا نصدق أطفالنا في جل ما نقول لهم ، فإننا لانصدق أنفسنا ،
ولانصدق

الآخرين .

إننا نضطر أحيانا إلى شيء من التحايل على أطفالنا في مواقف ما
حتى نتجنب الصدام المباشر معهم ، وحقيقة الأمر ، فلايمكننا القول
بأنهم لايتعاملوا معنا التعامل ذاته وفق ذات المنظور ، فهو أيضاً قد
يقبل هذا الاتجاه بشيء من التحايل حتى تهدأ الأمور ، ثم يشعلها كرة
أخرى في وقت آخر .
إنه وهو يقبل لاينسى ، بل يتناسى حتى تنتهي الأمور على خير .

عندما ينظر ابنك إلى طائرة تحلق في السماء ، فيطلب منك أن
تشتريها له .

الشعور الأول الذي يمتدبك ، هو إحساس ابنك بأنك الأب - السلطة
العليا - التي بوسعها أن تقدم كل شيء له ، وتحقق كل طلباته ، وغذا
أحس بغير هذا الإحساس نحوك ، فإنه قد يوجه هذا الإحساس ، وهذا
المطلب لشخص آخر يحتل موقع قدرة الأبوة لديه لأن الطفل يحتاج
إلى شعور بالحماية الأبوية ، وبالمقدرة الأبوية غير المحدودة ، إنه "
رب " البيت .

عندئذ تقول له : نعم يا بني ، سوف أشتريها لك ، وأنت تدرك بأنك
لاتصدقه القول ، ولكن حتى لاتخيب ظنه فيك ، وتجنبه التفكير في
منعرجات غير محمودة .

توافقه وتعدده بأنك ستشتري له طائرة ، لكنها مختلفة عن تلك الطائرة التي يريدها ، وهو أيضاً عندذاك يدرك مقدرتك المحدودة للتو على جلب مطالبه ، فيرضى بما دعتك قدرتك عليه .

ثم لنفرض أن هزة أرضية وقعت ن فإن الطفل بشكل عفوي يرمي نفسه في حضن أبيه حتى يحتمي به ، وإذا وقع حادث سير ، فإنه يفعل ذلك لأنه يشعر بأن أباه قادر على حمايته وأن قوته تفوق قوة الحوادث ، وهو كائن خارق القدرات لذلك يأخذه الخيال إلى تلك المواطن ، وهو حقيقة الأمر يرغب في أن يكون أبوه كذلك ، ولكن أمام سطوع الحقيقة يرضى بالأمر الواقع على مضض .

لذلك عندما يقول طفل لأبيه : أريد نجمة .
يمكن للأب أن يرفع كفه ، وكأنه يقطف تقاحة من شجرة البيت قائلاً لابنه : هذه نجمة .

فيضحك الابن برضى رغم أنه يرى الكف فارغة ، بل يعيد المطلب مرات عديدة ، حتى يقوم الأب بذات الفعل .
إنه حوار داخلي بين الابن والأب ، يختبر فيها الطفل من خلال لاوعيه مقدرات الأب الحقيقية ، وهو يفعل ذلك بذكاء أكثر مما يفعله بغباء .

وفي الحروب عندما يسمع الطفل وقع انفجار ، يهرع الطفل إلى حضن أبيه ظاناً بأنه يستطيع أن يمنع عنه شظايا الانفجار ، وهو يظن - ويرغب أن يظن ، وأن يمسي الظن حقيقة ولو مرة واحدة - بأن قوة الأب هي أعلى من قوة ترسانات الحروب .

الطفل هنا يدفع بأبيه كي يستجيب له حتى لايفقد الثقة بقوة أبوته ،
والأب يقدم على ذلك حتى يتعرف ابنه على الحقيقة بشكل متدرج .

وأحياناً تضطر الأم إلى التحايل على ابنها وتحذيره كي ينام قائلة له :
نم قبل أن يأتي الكلب الذي يعض الأطفال .

وهي عبارة موجهة إلى الطفل بامتياز ، يوجهها النسوة الريفيات على
الأغلب لأطفالهن حتى يناموا ، فإذا نظرنا إلى العبارة سندرك بأنها
موجهة إلى الطفل ، والطفل قد لايستقبل هذا التحذير ويستجيب له من
منطلق الغباء ، بل قد يستقبله ويستجيب له من منطلق الذكاء ، لأن
الكلب يعض الإنسان النائم بيسر أكثر مما يتمكن من اليقظ ، بل قد
يفعل ذلك حتى يغمض عينيه ولايرى الكلب يدخل الحجرة ، وحتى
تتولى أمه الدفاع عنه لأنه عندذاك يكون نائماً ، وما دام هو نائم ، فإنه
في حماية أمه التي لاتنام وفق مفهومه ، أمه التي تتولى مهمة حمايته
سواء إذا كان نائماً ، أو كان يقظاً .

وقد يحدث أن تريد أم أخذ طفلها إلى الطبيب ، فيرتعد الطفل ويمتنع ،
لكنها تقول له : سنذهب إلى بيت جدك . فيرضى ويمضي معها
بيسر .

هناك طرق أخرى قد يستعين بها الأبوان في التعامل مع الطفل ،
وهي طرق تحايل غير مباشرة . يحدث ذلك على سبيل المثال عندما
ينشج طفل بشكل متواصل ، ولي سبب .
هنا تلجأ الأم إلى معالجة هذه العادة بطريقة تحذيرية موظفة بشكل
دقيق ، وغير مباشرة ، فنقول له : البارحة فقد (إقبال) ابن جارنا
صوته ؟

يقول الطفل : كيف فقدت صوته يا أمي ؟
تقول : صوته زعل منه ، لأنه كان يبكي دائماً ، وذات ليلة بكى كثيراً ، وعندما أفاق من النوم صباحاً أحس بأنه فقدت صوته ، وعندما أراد أن يطلب من أمه قطعة حلوى ، لم يستطع لأنه فقد الكلام . بقي بدون حلوى ، وبدون أن يتناول الطعام ، حتى أنه لم يعد قادراً على البكاء ، فكيف يبكي يا مسكين بدون صوت .
بعد يومين أغمي عليه وأخذته أمه إلى الطبيب الذي حفته ، وعادت معه ومع أبيه إلى البيت .
في صباح اليوم التالي خرجوا جميعاً إلى الحديقة يبحثون عن الصوت .

يستغرق الطفل في الإصغاء وهو يرى هذه المراحل التي مر بها (إقبال) الذي تركه صوته.
يقول الأب : أجل يا بني بحثوا عن الصوت حتى وجوده مختبئاً بين أوراق شجرة الخوخ في حديقة البيت ، كان الصوت حزيناً ، ويبكي بمرارة ، وهو يرتجف من البرد .
قالت أمه للصوت : لماذا زعلت من إقبال ، وهجرت حنجرته ؟
قال الصوت : لقد أزعجني بصراخه المستمر حتى مرضتُ ، وهربتُ منه .
قالت : إذا وعدتك بأن إقبال لن يزعجك مرة أخرى ، هل ستعود إلى حنجرته ، إنه مسكين ، يجوع ولا يستطيع أن يطلب الطعام ، يعطش ، ولا يستطيع أن يطلب الماء ، إنه لا يطلب شيئاً حتى مرض وأخذناه إلى الطبيب ، هل تريد أن نأخذه إلى الطبيب كي يحقنه مرة أخرى ؟
قال الصوت : إذا وعدني بذلك ، سوف أعود إليه

عندئذ قال إقبال : أعدك يا صوتي بأنني لن أزعجك مرة أخرى ، أرجو عد إلي ، لقد اشتقتُ إليك كثيراً .
عندها نزل الصوت من بين أوراق الشجرة ، وعاد إلى حنجرة إقبال ، وعادوا جميعاً إلى البيت وأقاموا حفلة بهذه المناسبة دعوا إليها أصدقاء إقبال .

من يومها لم يعد إقبال يصرخ في البيت ، ولا يبكي ، وعندما يريد شيئاً ، يطلبه من أمه بصوت هادئ حتى لا يهجره صوته مرة أخرى .
إن المتعامل مع الطفل عليه أن يلجأ إلى شيء من الخيال حتى يستطيع أن يتواصل مع الطفل ، وبالنسبة لكاتب قصة الأطفال ، فهو يحتاج إلى توظيف هذا الخيال بشكل إيجابي أكثر من الأبوين ، لأنه يمد حبلًا إلى عالم الطفل من بعيد ، ويفترض أن الطفل سوف يتناول منه رأس الحبل كي يغدو جسراً توصلياً بينهما ، وهنا قد يعفي الكاتب الأبوين من الكثير من المشقة بقصصه الهادفة .

إن كاتب قصة الأطفال عليه أن يتمتع بخيال خصب معافى يشطح به في أفق واسعة شطر اكتشاف مساحات سحرية الواقع كما الحال في الكثير من القصص التي خلدت في ذاكرة مكتبة الطفل مثل : كليلة ودمنة ، وعلاء الدين والمصباح السحري ، والسندباد البحري ، والأمير الصغير ، وتوم أند جيرري . وعلي بابا والأربعون حرامي ، وسندريلا ، وأليس في بلاد العجائب ، وحكايات أندرسون ، وتان تان ، وميكي ماوس ، وحكايات ذات الرداء الأحمر ، وبياض الثلج ، والأقزام السبعة ، للأخوين الألمانين غريم .

إنها قصص تقدّم للطفل التسلية والمتعة ، وتحضه على استخدام الخيال من جهة ، وعلى تلقي الخيال والتفاعل معه من جهة أخرى ، بيد أن

هذا الخيال يستخدمه القاص غير المتمكن بشكل ممل يبعث على الضجر لأنه يخلو من المقدرة على سحر الطفل ، والقصة التي تخلو من عنصر التشويق هذا ، فإنها لا تترك أثراً لديه ، وهو يتأثر بها يتفاعل معها على قدر ما تدخله إلى سحرية عوالمها .

في قصة الأمير الصغير يستخدم (أنطوان دي سانت إيكزويري) هذه السحرية الموجهة إلى الطفل ، ، فلو كان الطفل الذي يؤدي بطولة هذه القصة من أبناء كوكب الأرض ، لفقدت القصة عنصر السحرية والدهشة والغرابة ، بيد أنه يقيم من كوكب آخر ، ويكتشف للناس جماليات هذا الكوكب ، وهي قصة يمكن قراءتها بالنسبة للصغار ، واليافعين ، والكبار أيضاً ، فقد قرأتها في مراحل متعددة ، وكل قراءة كانت تقدم لي شيئاً لم أكن عرفته في القراءة التي سبقتها ، على الرغم من أن كاتبها كتبها بشكل سريع ومختصر ، وهي لا تتمتع بفنية القصة العالية ، ولا بالتقنيات القصصية البارعة ، لكنها قصة الفكرة الجيدة ، إن الفكرة في هذه القصة شفعت للكثير من المآخذ عليها .
يقول السارد الذي تعطلت به طائرته في الصحراء الأفريقية :

/ رأيت وأنا في السادسة من عمري، صورة رائعة في كتاب عن "الغابة العذراء" يدعى "قصص حقيقية" وكانت الصورة تمثل ثعباناً يبتلع وحشاً.

وقرأت في الكتاب: إن الثعابين تبتلع فريستها بكاملها، من دون أن تمضغها، فإذا ابتلعها عجزت عن كل حركة ونامت مدة ستة أشهر

حتى تنتهي من هضمها. وبعد ا، فكرت ملياً فيما يقع في الغابات من الحوادث أخذت قلماً فيه رصاصه ملونه وخطت أول رسم رسمته.

ثم رأيت باكورة فني الكبار من الناس وسألتهم قائلاً: أما يخيفكم هذا الرسم؟

فأجابوا: متى كانت القبة تخيف الناس؟

ما كان رسمي يمثل قبة بل ثعباناً يهضم فيلاً. ثم رسمت باطن الثعبان عسى أن يفهم الكبار فإنهم في حاجة دائمة إلى الإيضاح. وكان رسمي الثاني كما ترى: فلما أبرزته لكبار الناس نصحوا لي بأن أدع جانباً رسم الثعابين من الخارج والباطن وقالوا: الأفضل لك أن تعني بدرس الجغرافية والتاريخ والحساب وقواعد اللغة. فأهملت، وأنا في السادسة من عمري، مستقبلاً باهراً في فن التصوير لأن رسمي الأول والثاني لم يروقا كبار الناس. إن هؤلاء الكبار لا يدركون شيئاً من تلقاء نفوسهم فلا بد للصغار من أن يشرحوا لهم ويظيلوا الشرح ويكرروا. ولا يخفي ما في هذا من التعب والعناء .

إنها قصة تعليمية تصلح للقراءة في كل زمان ومكان ، وهي قصة تربوية وتوجيهية ، توجه الطفل كي يعرف قيمة الزمن ، وقيمة المنجزات البشرية ، وقيمة فصول الطبيعة .

هذه القصة تعرف كيف توجهك في مراحل قراءتها ، تمنح روحك بعضاً من صفحاتها ، ثم تأمرك بتأجيل ما تبقى إلى الغد دون أن تقبل أي مساومة منك لتلقب ولو جملة أخرى . فتضطر إلى الإذعان وتعود في الغد لتمنحك بضع صفحات مشرقة أخرى ، ثم تقول : كفى من فضلك .

تقول لك هذا وأنت في ذروة العلاقة الروحية والحدسية مع نسيجها ، وعندما تريد إرغامها على القبول في الاستمرار تقول لك بشفافية امرأة بالغة الرقة : لكن أرجوك فأنت لست مهياً الآن ، وأنا لست مهياً ، إنني أتألم ، سأعيدك إلي وسأهيك نفسي وجسدي عندما تنتهي حواسك لاستقبال ما تبقى مني ، عندما أتهيأ لمنحك كل ما لدي . فتناديك في الغد إلى عرسها معك ، ثم ما تلبث مرة أخرى أن تكرهك على التوقف وأنت في قمة انسجامك ، ولا تملك مرة أخرى غير أن ترسخ لتوسلاتها ولدموع عذريتها الأولى .

وإن نزعك نزع وسعيت للتواصل رغما عنها تأتيك بلغة أخرى فتشعرك بأنك تغتصبها وهذه عملية غير أخلاقية لاتليق بشخص يريد أن يبني علاقة مع امرأة عفيفة بحجمها ، إذ أنها تتألم وتنزف بين يديك وأنت لا يهتمك سوى أن تستخلص اللذة من هذا الأم ، فتنهض دون أن ترضى لنفسك الاستمرار في سادية كهذه .

ولكن تقول لنفسك : ما هو السر الذي يقف خلف كل هذا التأجيل؟! فتري بأنك خلال هذا الانقطاع تفتتح على بناء علاقات حميمة مع الأشياء من حولك ، تبني علاقات صداقة مع الورود ، مع النجوم ، مع الماء ، مع كل الأشخاص الذين تلتقيهم . إنك هنا تشعر ببراءة وامتلاء كل شيء من حولك كنت تراه ولا تلتفت إليه كما تتعلم من الأمير الصغير الذي يأتي حتى يفتح عينيك ، ويفتح حواسك على عناصر الحياة التي تراها ، ولا تنظر إليها ، تحس به ، ولا تعيشها .

ثم تقول لك : إن معرفتك لقوة سطوع الأشياء محدودة لأن عينك تنظر إلى ظاهرها نظر العين ، وهي تحتاج إلى أن ينظر قلبك أيضا إلى جوهرها نظر القلب لتكتمل المعرفة .

مع هذه الرواية ندرك كم أننا خسرنا كثيرا مع إنجازات هذا العصر ، خسرنا كثيرا من المشاعر وطاقات الصبر وإمكانية الاستمتاع بالوقت والعمل وممارسة تفاصيل الحياة .

لقد بات الإنسان في هذا الوقت يحصل على كل شيء في لحظات معدودة ، كل شيء بات يعزز ثقافة العجالة في نفسه ، فهو إن أراد إرسال رسالة ، يكون له ذلك في لحظات ويتلقى الإجابة عليها في تلك اللحظات ، وإن أراد السفر إلى أبعد بقعة في الأرض حدث ذلك في وقت قصير ، ثم أن أي حدث يقع في أي بقعة من العالم يراها حالا بالصوت والصورة .

لاشك أن كل هذا التراكم إذا تركه الإنسان على سجيته ولم يتحكم به ، يولد حالة العجالة الدائمة في ذاته ويعززها ، فيكون قلقا مضطربا ، يشعر بأنه يركض طوال الوقت حتى وهو نائم في سريره ، يركض دون أن يصل إلى حد يقول فيه : هاقد وصلت ، لأنه كلما يركض تأخذ الطريق أمامه مسافات أطول .

وهذا يأتي على مختلف جوانب حياته وسلوكياته مع نفسه ومع الآخرين .

فنرى شخصا مايزال يحط على سطح الجامعة ويستعد للطيران للتو نحو فضاء الحياة يريد أن يكون نجما مشهورا ، وزوجا لأجمل امرأة ، وأبا لستة أولاد ، ومالكا لبيت وسيارة ورصيد في البنك ، ويتمتع بكل منجزات العصر في سنة واحدة ، فإن أجرى اتصالا مع شخص يبعد عنه آلاف الأميال وصدف أن الاتصال الأول لم يتم بنجاح ، لا يتردد من أن يحطم الجهاز المحمول ويفقد أعصابه لأن ذلك تأخر

كثيرا ، وإن أراد أن يدخل إلى شبكة الانترنت واستغرق دخوله خمس دقائق ، يفقد أعصابه من العجالة وكأنه ينتظر منذ سنة .

كنا ننتظر شهرا حتى نكتب رسالة ونضعها في يد الحبيبة ومنتظر شهرا حتى يأتينا الجواب ، وكنا نمضي في السفر يومين متتاليين في حافلات معدومة من كل وسائل التهوية في عز الصيف حتى نصل العاصمة ، وكان يشاركنا الركوب : الماعز ، والغنم ، وديك الحبش ، وتمتلئ الحافلة بغيوم من دخان السجائر ، والسعال الحاد ، والشتائم ، والقهقهات المرتفعة .

كنا ننتظر يومين لتصلنا صحف العاصمة ، وأحيانا كنا ننتظر سبع ساعات متواصلة حتى نتمكن من الاتصال بمدينة مجاورة لا يستغرق الوصول إليها سبع ساعات لأننا كنا نسجل على المكالمات بواسطة البريد ، وكان المرء ينتظر خمس عشرة سنة حتى يأتي دوره للحصول على خط هاتفي فيقيم عرسا بتلك المناسبة السعيدة التي يحسده عليها الآخرون .

هذه الرواية تنبه الإنسان ليتحكم بثورة التقنيات العالية التي حلت عليه فجأة ويكون هو قائدها ومهيمنها عليها ، ودوما يمنح لنفسه هامشا من الصبر حتى يبقى متوازنا ومستمتعا بهذه المنجزات ومتذوقا لقوة عظمتها دون أن تفقده توازنه الطبيعي الذي نما عليه لحظة بلحظة . وهو عندذاك يشعر بأنه هو الذي يملك ، وهو الذي يقود ، وهو الذي يقرر .

عندها لا يجد وبالا في أمره من أن يكتب رسالة بخط اليد ويرسلها عبر البريد العادي رغم توافر كل وسائل السرعة الأخرى ولو مرة واحدة في الشهر ، يمكن أن يسافر عبر البر أو البحر إلى إحدى الدول رغم وجود وسائل نقل أسرع ، يمكن أن يمشي على قدميه ساعتين وسط

المدينة وهو يشتري حاجاته رغم وجود سيارة لديه ، يمكن أن يبرك على رصيف فيأكل صندويشة فلافل ، ولا ينسى أن ينظر بقلبه إلى العصفور وهو يطير ، إلى الزهرة وهي تتفتح ، إليه وهو يستيقظ للتو من نوم عميق .

لقد اهتم الناس بمختلف شرائحهم بتربية الأولاد ، وكان الآباء عبر العصور يتقصدون بعض التصرفات بحضور أطفالهم حتى يقتدوا بهم .

ذات مرة اصطحب يزيد بن المهلب ابنه معاوية معه ، ومراً بامرأة بدوية ، فاستضافتهما وذبحت لهما عنزاً ، فلما اكلا قال يزيد لابنه : ما معك من النفقة ؟

قال : مائة دينار

قال يزيد : اعطها إياها

فقال له ابنه : هذه امرأة فقيرة ، يرضيها القليل وهي لاتعرفك فقال يزيد : إن كان يرضيها القليل ، فأنا لايرضيني إلا الكثير ، وإن كانت لاتعرفني ، فأنا أعرف نفسي .

وفي الأحاديث ، كان التوجه نحو احترام الجوار حتى من خلال بعض ممارسات الأطفال ، فكان التوجه نحو ألا يخرج الطفل بطعام طيب أمام أطفال الجوار إذا كانوا فقراء . وفي الحديث : أتدرون ما حق الجار ؟ إذا استعان بك أعنته ، وإن استنصرك نصرته ، وإن استقرضك ، قرضته .. إلى أن يقول : وإذا اشتريت فاكهة فاهد له ، وإن لم تفعل فأدخلها سراً ، ولايخرج بها ولدك ليغيظ ولده .

اهتم العالم برمته بأدب الطفل ، والقصة هي أقرب أساليب التربية إلى مخيلة الطفل وأكثرها قرباً من الطفل ذلك أن الطفل يترعرع على سماع الحكايا في البيت من أمه ، أو من جدته ، ويغفو وهو يستمع القصص والحكايا حتى يترسخ ذلك في نفسه ، ومنذ عام ١٩٦٧ يحتفل العالم كله في اليوم الثاني من شهر نيسان من كل عام باليوم العالمي لكتاب الطفل ، وفي كل عام يتم اختيار إحدى الدول الأعضاء لرعاية الاحتفالية وتقرير شعارها ، ويوجه أدباء الأطفال في تلك الدولة رسالة إلى الطفولة بهذه المناسبة .

طفولة الإنسان مثل طفولة الأشياء هي التي تضيف عليه براءة ذمته وأصالته ، وهو بهذه الطفولة يمتلك العالم كله من خلال امتلاك وردة واحدة من كل هذا العالم .

إن القصة الطفلية المتمكنة ، هي تلك القصة التي تجعل الطفل يضحك تارة ، ويحزن أخرى ، يتأمل تارة ، ويتخيل تارة ، وبعد أن يفرغ منها ، تترك في مخيلته آثار أفكارها وأحداثها .